الرأى العام وعوامل تكوينه

للأستاذ عبد الرحمن العيسوى

مظهر الوجود الصحيح للأمم هو ما أصطلح على تسميته بالرأى العام ، واذا كان الرأى ، أعنى مجرد الرأى . معناه الفكرة الناضجة والخبرة الصادقة والحس والذوق السليم ، فالرأى العام إذن ، معناه : الفكر الناضجة والأذواق السليمة فى الحكم على الأمور العامة ، سياسيا واجتماعيا .

وأمتنا المصرية تحس الحاجة وهى فى الطور الأخير من أطوار انتقالها — كما نأمل — الى رأى عام بالمعنى الذى وصفناه ، لذلك نشير الى عوامل تكوين الرأى العام فى هذه المقالة القصيرة لتكون مثار دراسة الكتاب وابحاث المفكرين وتذكرة المسئولين ، ونقرر أن الاتجاه فى تكوين الرأى العام يتعذر ويطول به الزمان اذا عالجناه فى القوالب الفردية ، فالقرآن الكريم وهو جماع المبادىء الفلسفية والاجتماعية وضع له قواعد ليست من الفردية فى شىء بقوله :

"يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم" والآية بصدد التوجيه الاعتقادى الذى هو عامل أول من عوامل تكوين الرأى العام ، فلم يخاطب الفرد ولكن خاطب الجماعة ، ووضع وسيلة وأسلوبا جمعيا لا فرديا ، فعلينا إذن حين نحاول تكوين الرأى العام أن نتجه الى تكوين رأى الجماعات الصغيرة مسايرة للقاعدة واختصارا للزمن .

فهذه مجموعات التلاميذ فى المدارس ، والطلاب فى الجامعات والمعاهد ، ومجموعات الموظفين فى الدواوين والفلاحين فى القرى ، والعمال فى المصانع ، والعمال فى النقابات ، وأيضا مجموعات المذنبين فى السجون ، ومجموعات الجماهير فى الشارع ، يمكن أن يوضع لكل مجموعة منها ، توجيه مناسب لها ، يقارب اتجاهاتها ، ويشاكل بين نزعاتها ، فيتألف لدينا رأى عام متوافق المشارب ، والتوافق هو العنصر الأول من عناصر تكوين الرأى العام ، وصور التوافق متعددة ، وعوامله كثيرة ، فمن صوره التوافق الحسى فى الأزياء والتوافق المزاجى بعامل تماثل البيئة ، والبيئة هى كل ما نسمع وما نقرأ وما نبصر وما نحس ، وهى المؤثر الأول فى التكوين من حيث قوة التأثير واستمراره وملازمته للفرد منذ ولادته ، والتوافق الاعتقادى ، صورة أخرى ، ونحن مع الأسف فى هذه الناحية متنافرون ، فالمذاهب الدينية المستحدثة لا توجد توافقا بل تنافرا ، فالسنى والسبكى والسلفى والصوفى ... الخ تلك التعابير ومدلولاتها ، كل منهم على غير رأى الآخر ، بينما توفق بينهم العقيدة الأساسية فى الدين ، تباعد بينهم هذه الابتداعات .

ومن عوامل التوافق ، توحيد الثقافة الشعبية ، بعد العمل على ايجادها ، وتوحيد أساليب التربية ومناهج الدراسة ، فهذه الطرائق الخمسة من طرائق التعليم والمناهج ممثلة فى المدارس الازامية والمدارس الأميرية والمعاهد الأزهرية والمعاهد الأجنبية بفروعها ، الدينى منها

والعلمانى ، لا تحقق توافقا ذهنيا بين خريجيها ، فطالب الجامعة المصرية على نسق وغرار فى تفكيره ورايه مخالف كلية لنسق وغرار طالب الجامعة الأزهرية ، وكلاهما على غير صورة خريجى مدرسة الجزويت أو كلية فكتوريا ، أقصد المخالفة فى النظر الى المسائل العامة وفى الحكم عليها ، وهم جميعا مختلفون مع غيرهم جميعا .

فتوحيد برامج التعليم وأساليب التربية فى المراحل الابتدائية على الأقل ، وفرضها لزاما على معاهد العلم المختلفة ، عامل أساسى فى ايجاد التقارب الذهنى بين طبقات الشعب ؛ فاذا كانت هذه المناهج معنية عناية صحيحة ، الى جانب ما تحققه وحدتها من انسجام ، يخلق الكرامة الشخصية والكرامة الاجتماعية والكرامة الوطنية ، تحقق من عناصر الرأى ، الاصابة والقوة والطموح ، وهو العنصر الثانى ، وليس مما يخلق الكرامة الاجتماعية والوطنية ، أو يساعد عليها ، أن تهمل اللغة القومية فى بعض فروع الدراسة الجامعية لأى سبب واه أو حجة عليلة ، ومجموعات الموظفين فى الدواوين ولهم أثرهم فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، أحوج الى الانسجام والطموح وتوفر الكرامة الشخصية والاجتماعية والوطنية ، ولا تتوفر الأولى إلا اذا تركت للموظف فرصة التمرس بالاضطلاع بالمسئولية وعومل من وؤسائه على أنه مادة حية لها تصرف ذاتى ، لا آلة كاتبة تقدم الأوراق ولا تعرضها ، وتسجل التأشيرات ولا تناقشها ، وتأخذ التوجيه دون أن تفهمه ، ولا تتوفر الثانية أى الكرامة الاجتماعية إلا اذا انتظمتهم ثقافة اجتماعية متماثلة وأعطيت لهم الفرص للتزود من المعرفة بتعميم الأندية الخاصة بهم ، وتعميم الجماعات الفنية والأدبية بينهم وتحريضهم على الاضطلاع بكل أساليب التحريض ، والكرامة الوطنية فى صفوفهم تكون بكفالة استقرار حالهم والتنائى بهم عن أن يكونوا فى مهاب الأهواء التى تمحق استقلال آرائهم وتلاشى ذاتيتهم فى غيرهم .

والفلاحون فى القرى تتكون ملكاتهم فى الشئون العامة إذا يسرنا لهم مشاركتنا فى تلك الشؤون وأثرنا أذهانهم بأساليبنا فى فهم الحياة الاجتماعية ، وعرضنا لهم صورها الذهنية على تنوعها ، بتعميم أجهزة الاذاعة اللاسلكية فى الساحات الشعبية فى قراهم ، مع تخصيص برنامج خاص بتلك البيئة ، مرات كل أسبوع ، للتثقيف والترفيه ، ولا بد لنخلق رأيا عاما ، رأيا عاما كالذى وصفناه ، فى جماهير الفلاحين ، لا بد أن ننهض بمستواهم الاقتصادى نهضة ترقى بمشاعرهم وتكرم أنفسهم على أنفسهم ، فالارتقاء الاقتصادى ورفع مستوى المعيشة عامل عظيم القيمة فى صون الكرامة الشخصية والاجتماعية بل وفى خلقها ، وهو ضرورى التوفير لكل الجماعات ، ولكنه لجماهير الفلاحين اوجب وألزم ، وقد درس الخبيرون دواسات مستفيضة وعملية ، أمر توفيرالرخاء لتلك الطبقات ولم يبق إلا أن توجد الجرأة الوزارية للتنفيذ ، ويقينى أن معالى وزير الشؤون الاجتماعية الحالى — وهو من أعرف نزعاته الوطنية الصادقة وروحه المتوقدة غيرة على العمل الوطنى لأعلى الكلام فى الوطنية — هو الرجل الذى طال بالشباب المصلحين انتظاره ، ليقود جهودهم وينظم صفوفهم .

والعمال فى مصانعهم ، يصدق عليهم هذا على صورة تختلف قليلا ، ويجب لهم فوق ذلك فراغ . . ثم إشراف على تنظيم ذلك الفراغ ، لاستغلاله فى الاستزاده من الثقافات المهنية والاجتماعية التى يجب على النقابات أن تعرضها عليهم وتيسر تحصيلها لهم ، مما لابد لعامل العصر الحديث أن يعرفه ، ليؤهله إلى ما يطمح إليه من آمال سياسية وقيمة اجتماعية . وهؤلاء العمال فى نقاباتهم ، لديهم الفرصة لتمحى الفوارق الذهنية والاجتماعية التى تباعد كثيرا بينهم وبين الطبقة التى تعلوهم ، لو أشرفت هيئة من الإخصائيين يختارها وزير الشؤون الاجتماعية لتضع برامج ثقافة مهنية واجتماعية لنقابات العمل وتنظم إنجازها فى دور تلك النقابات جميعا ، بذلك نضمن تقارب منازع الرأى العام فى جماهير لها مشاركة فعلية فى إبداء الرأى ، وهى مشاركة خطرة ماقامت على معلومات خاطئة وثقافة ناقصة واستنباطات ساذجة ، فلنعالج الرأى العام العمالى فى سرعة وحزم وإخلاص ، وإن نقابات العمال تستطيع أن تصوغ أفرادها صياغة الجواهرى لقطع الحلى بأنظمتها التعاونية ووحدة الفكرة فيها ووحدة الغرض وسموه ، وتستطيع أن تقيم بهم التوازن فى المجتمع ، بما تخلق فيهم من ملكات الكرامة الشخصية والاجتماعية والوطنية .

والمذنبون فى السجون الذين يعيشون فى ظل نظام لايساعد على شعورهم بكراماتهم ، وبينما الدنيا تتطور وعلم النفس يتسيطر وروح المجتمع تتغير ، فان قوانين السجون فى مصر لاتتبدل ولا تتحور ، وقد آن لمجتمعنا أن يقول للفيلسوف وأستاذ علم النفس كونا أنتما السجانين فانا نريد السجان مهذبا ومعالجا ، لاعسافا وزاجرا ، موجها ومرشدا ، لاحاسبا معاقبا ، آن للمجتمع أن يقول للعالم والفيلسوف ، أحرجا لنا من هذه النقابات الآدمية ، خيرمافيها ، صحصحا لنا المصاب المريض بالجريمة ، وصوغا من جديد نفسية الضحية لظروف لم يخلقوها ، ثم أعيدوا لنا هذه العشرات من الآلاف أو أكثرها على الأقل ، أعيدوها أجزاء كريمة فى كيان الرأى العام وأعضاء سليمة فى المجتمع العام . . وذلك على الفيلسوف والعالم جد يسير .

وجماهير الشارع الذين لايجدون بيئة تربى الذوق أو تسمو بالحس الشخصى والوطنى ، فلا تماثيل للعظماء الراحلين — على أسوار الحدائق مثلا ، وفى الشوارع والميادين ، ولا هندسة تنظيم ، ولاساحات ملاعب رياضية ، ولا نواد شعبية ، إلى آخر صور البيئة الجميلة الفاضلة ، ولاتقع أعينهم إلا على أفرادهم ، فى أزياء كرنفالية متنافرة ، لاتوجد الأذواق ولاتؤلف الأحاسيس ، ولاتسمع آذانهم إلا ألفاظا نابية غير مهذبة ، ولاتشغلهم إلا النسكع على الطوارات والمقاهى ، تدمر وقتهم وأعصابهم وأموالهم واخلاقهم .

هؤلاء ، وهم جزء هام فى الرأى العام ، يسمى باسمه الكل ، فتقول هذا رأى رجل الشارع تعنى غالبية الرأى العام ، يلزمنا حيالهم ، لتتوفر لهم صفة الرأى العام الذى عرفناه ، أن نتلافى كل ما ذكرته من نقائص ونحل محلها أضدادها من المحاسن .

ولا أغفل أن من العوامل الأساسية فى صوغ الرأى العام وطبعه بطابع معين ، الصحافة ولكنها مع الأسف عاجزة فى الأحوال الحاضرة عن أداء مهمتها على الوجه الأكمل ، فرأينا العام بعيوبه هذه ، يتنازع اجتذابها اليه فيكاد يسيرها بدل أن تسيره ، ويتزل بها بدل أن تعلو هى به ، والوسيلة الصحيحة لاستخدام الصحافة فى تكوين الرأى العام ، التكوين الذى نطلبه (فى شعب كشعبنا وظرف كظروفنا) ، هى أن توضع للصحافة والصحافيين قواعد وأهداف ومناهج وأساليب توحدها نقابة الصحفيين ، حتى لا يكون هناك مجال لتنافس الصحف فى اجتذاب الجماهير باسترضائها ومسايرة رغباتها ، فتقرأ الجماهير كلها ، الصحف المنشورة ، دون تفضيل ، وتتأثر طوعا أو كرها بارشادها .

أن القوانين أيضا مؤثرة فى الأخلاق ، والأصل فيها أن تكون متفاعلة مع أخلاق الشعب ، ولكن حالتنا الخاصة تستدعى أن يحرص زعماؤنا وحكامنا على أن تصوغنا قوانيننا ، لا أن نصوغها نحن مع قلة نضجنا ، وأنى لموقن أن العامل الأول فى توجيه رأينا العام ، يجب أن يكون الساسة والزعماء ، فهم المرشد الذى نحتاجه ولا يجوز لنا فى دور التكوين والطفولة الاجتماعية ، أن نصنع الزعماء والقادة ونجتذب العقول الكبيرة الى مستوى عقولنا الناشئة .

عبد الرحمن العيسوى

الغبى يصدق كل كلمة والذكى يتنبه الى خطواته .

(سليمان الحكيم)

أنا الغنى وأموالى المواعيد .

(المتنبى)